

(مفكرون فلسطينيون في القرن العشرين) تأليف: د. تيسير الناشف

Palestinian Thinkers in the 20th Century

محمد الحزماوي

كلية الآداب، جامعة القدس، القدس، فلسطين

تاريخ التسليم: (٢٠٠١/٧/٢٨)، تاريخ القبول: (٢٠٠٢/٥/٥)

صدر في عام ١٩٩٩ عن منشورات الطلائع بياقة الناصرة بفلسطين الطبعة الثالثة لكتاب بعنوان "مفكرون فلسطينيون في القرن العشرين"، تأليف تيسير الناشف ويقع الكتاب في ١١٢ صفحة من القطع المتوسط، وقسم إلى مقدمة و خمسة أقسام ، كان القسم الأول

(ص٧-١٨) بعنوان الخلفية التاريخية والأدبية، أما الأقسام الأربعة الأخرى (١٩-١١١) فقد تحدث الباحث فيها عن أربعة مفكرين فلسطينيين، ثلاثة منهم يعدون من أبرز علماء اللغة بفلسطين، وهم: محمد إسعاف النشاشيبي (١٩-٦٣)، و خليل السكاكيني (٥٦-٨١)، و اسحق موسى الحسيني (٨٢ - ١١١)، أما المفكر الرابع فكان عارف العارف الذي يعتبر من أبرز المؤرخين الفلسطينيين الذين اسهموا في مجال الكتابة التاريخية عن المدن الفلسطينية.

لقد شهدت بلاد الشام بما في ذلك فلسطين خلال القرن التاسع عشر نهضة أدبية وثقافية، تجلت في نشوء العديد من الجمعيات الأدبية والعلمية، والكتابات العلمية عن التاريخ واللغة والآداب العربية والتراث العربي الإسلامي، أسهمت في تعزيز الوعي القومي العربي والاعتزاز بالتراث العربي، ورغم ذلك فقد بقي العرب متمسكون بالدولة العثمانية، وشهد عام ١٩٠٨ تحسناً في العلاقات العربية - التركية، وظهرت العديد من الجمعيات العربية التي أكد بعضها على ضرورة الإخلاص للدولة، بينما طالب البعض الآخر إقامة الحكم الذاتي في إطار الدولة العثمانية، ولم تطالب هذه الجمعيات بانفصال واستقلال العرب عن الدولة العثمانية، غير أن سياسة التتريك التي اتبعتها جمعية الاتحاد والترقي أدت في النهاية إلى توسيع الهوة بين العرب والأتراك، وقد تمخض عن ذلك الثورة العربية ضد الأتراك بقيادة الشريف الحسين بن علي الذي حصل على وعود من قبل بريطانيا لنيل العرب استقلالهم السياسي.

وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨ أصيبت الحركة القومية العربية باليأس والإحباط، حيث نكثت بريطانيا بوعودها، ووقعت الأمة العربية تحت أشكال مختلفة من الاستعمار الأجنبي. وكانت فلسطين من أكثر البلدان العربية التي عانت من مرارة الانتداب البريطاني، حيث أخذت الحكومة البريطانية منذ بداية انتدابها على فلسطين تعمل على تسهيل إقامة الوطن القومي اليهودي فيها، ولذلك فقد امتزج الأدب العربي في فلسطين بالسياسة، ويتضح ذلك من نتاج أغلبية الشعراء الفلسطينيين حيث شغلت القضايا السياسية الحيز الأكبر من أشعارهم، وتلك كانت الخطوط الرئيسية التي تناولها الباحث في القسم الأول.

أما الأقسام الأربعة التالية فقد تناول الباحث في كل قسم منها مفكراً من المفكرين الأربعة، وفي كل قسم يقدم نبذة عن حياته وإنتاجه العلمي وأفكاره، في مختلف المجالات و القضايا التي تناولها من سياسية، وأدبية، وتاريخية، وإجتماعية.

ليس ثمة من شك أن موضوع هذه الدراسة له أهمية خاصة، نظراً للدور الوطني الذي لعبه المفكرون الفلسطينيون خلال الانتداب البريطاني على فلسطين. غير ان الباحث لم يتابع ما نشر حول موضوع الدراسة علماً ان دراسته طبعت ثلاث مرات ، اثنتان عام ١٩٨١ والثالثة صدرت عام ١٩٩٩، فقد ظهرت في هذا الموضوع دراسات قيمة، أهمها ما ظهر في الموسوعة الفلسطينية بقسميها العام والخاص، بالإضافة إلى دراسة أخرى للدكتور عدنان أبو غزالة بعنوان: "الثقافة القومية في فلسطين خلال الانتداب البريطاني"، التي صدرت منها الطبعة الأولى باللغة الإنجليزية عام ١٩٧٣ عن مركز الأبحاث الفلسطيني في بيروت، ثم ترجمت فيما بعد إلى اللغة العربية ولم يستفد الباحث من هذه الدراسة إلا في هامش واحد فقط في القسم الأول، وهناك أيضاً دراسة أخرى قيمة باللغة الإنجليزية لطريف الخالدي بعنوان: "المؤرخون الفلسطينيون ١٩٠٠-١٩٤٨"، وهي منشورة في مجلة الدراسات الفلسطينية، الصادرة عن مركز الأبحاث الفلسطيني في بيروت، المجلد ١٠، العدد الثالث، ١٩٨١.

إن دراسة شخصية ما تقتضي العودة إلى جميع تراثه من مؤلفات ومقالات أو مراجع ودراسات تحدثت عنه، وهذا ما لم يتوفر في هذه الدراسة، لاسيما أن الإنتاج العلمي لهؤلاء المفكرين الذين تناولتهم الدراسة منشور وفي متناول اليد، فعندما تحدث عن النشاشيبي أورد قائمة عن المراجع والدراسات التي تحدثت عنه لا سيما المقالات المنشورة في مجلة الرسالة غير أن الباحث لم يستخدم أي من هذه الدراسات، معتمداً فقط على بعض كتابات النشاشيبي.

وتتضح الصورة بشكل أفضل عندما تحدث عن عارف العارف، فقد بلغ عدد هوامش القسم المختص به ٣٣ هامشا، كان منها ٢٨ هامشا من كتاب واحد للعارف وهو "تكية بيت المقدس والفردوس المفقود" وخمسة هوامش من كتابين آخرين، منهما هامشين من "كتاب بئر السبع وقبائلها"، وثلاثة هوامش من كتاب "تاريخ القدس". ويعني ذلك أن الباحث اعتمد بشكل رئيس على كتاب واحد للعارف، غير أن العارف يعتبر من أبرز المؤرخين الفلسطينيين الذين أرخوا للمدن الفلسطينية من أجل التأكيد على عروبتها وصلتها الوثيقة بالعرب والحياة العربية على مر العصور وذلك، لإثارة الوجدان القومي والشعور الوطني^(١)، كما يتجلى ذلك في كتبه: "تاريخ بئر السبع وقبائلها"، القدس، ١٩٣٤، و"الموجز في تاريخ عسقلان"، القدس، ١٩٣٤، و"تاريخ غزة"، القدس، ١٩٤٧، وللعارف كتب أخرى وان صدرت بعد عام ١٩٤٨، أهمها: "تاريخ قبة الصخرة والمسجد الأقصى"، القدس، ١٩٥٥، و"المفصل في تاريخ القدس"، القدس، ١٩٦١.

وبالإضافة إلى ذلك لم يستفد الباحث من كتاب العارف "تاريخ الحرم القدسي، القدس، ١٩٤٧" والذي اعتمد فيه العارف على الكتابات والنقوش الموجودة على الأبواب والقباب والمنابر والجدران لقبة الصخرة والمسجد الأقصى، إضافة إلى كتب الفضائل والمخطوطات والرحلات وسجلات المحاكم الشرعية.

وما ينطبق على حالة العارف ينطبق كذلك على إسحق موسى الحسيني، حيث ألف أكثر من عشرين كتاباً، ولم يستخدم الباحث سوى عدد قليل منها، فقد بلغ عدد هوامش القسم المتعلق بالحسيني ٧٤ هامشاً، كان منها ٢٤ هامشاً من كتاب: "مذكرات دجاجة" و١٣ هامشاً من كتاب: "رأي في تدريس اللغة العربية" و١٠ هوامش من كتاب: "عودة السفينة" و٢٢ هامشاً من "كتاب أزمة الفكر العربي". أما القسم المتعلق بخليل السكاكيني، فرغم أن الباحث أورد قائمة ببعض المراجع التي تتحدث عنه إما بشكل مباشر أو غير مباشر، غير أنه لم يستفد إلا من مرجع واحد فقط وهو: كتاب "خايل السكاكيني اللغوي"، للمؤلف عصام الشنطي، الصادر عام ١٩٦٧ من معهد البحوث والدراسات في جامعة القاهرة.

(١) أبو غزالة، الثقافة القومية في فلسطين، ص ١٩.

وفي هذا الصدد أيضاً ، فقد ذكر الباحث في مقدمة الدراسة (ص ٦) أنه استعان ببعض المصادر الإنجليزية في دراسته، غير أن هذه المصادر كما يذكر هي مراجع وليست مصادر، كما بلغ عددها ثمانية مراجع منها أربعة مراجع مترجمة إلى اللغة العربية، وهي:

١. البرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة، وقد ترجمه كريم عزقول، وصدر عن دار نوفل للنشر ببيروت عام ١٩٩٧.
٢. جورج انطونيوس، يقظة العرب، وقد ترجمه عن الانجليزية الدكتور إحسان، عباس الدكتور ناصر الدين الأسد، وصدرت الطبعة الأولى منه عن دار العلم للملايين ببيروت ١٩٦٢.
٣. عدنان محمد أبو غزالة، الثقافة القومية في فلسطين في عهد الانتداب البريطاني، وقد ترجمه حسني محمود، وليس معروفاً متى تمت الترجمة.
٤. نجلاء عز الدين، العالم العربي، وقد ترجمه مجموعة من الأساتذة، وصدر في القاهرة ١٩٥٧.

وكانت استفادته من هذه المراجع الثمانية قليلة، فقد أشار لكل منها في هامش واحد فقط، ما عدا كتاب البرت حوراني الذي استفاد منه بهامشين، وفضلاً عن ذلك فقد كان استخدامه لهذه المراجع مقتصرًا على القسم الأول من الدراسة، ولم يستخدم أي منها في الأقسام الأربعة الأخرى وهي الموضوع الرئيس في الدراسة.

ولا بد من الإشارة أيضاً إلى ان المفكرين الاربعة الذين شملتهم هذه الدراسة، كانوا جميعهم مقدسيون. وقد اشار الباحث الى ذلك في مقدمة الدراسة (ص ٦) بقوله "هذه الدراسة لا تتناول كل الكتاب والأدباء والمفكرين البارزين في فلسطين حتى نهاية الانتداب البريطاني في سنة ١٩٤٨"، ويفهم من ذلك أن المدة الزمنية للدراسة تقف عند عام ١٩٤٨. غير أنه لم يبين ذلك في عنوان الدراسة، ولذلك فإن العنوان المناسب للدراسة هو "مفكرون مقدسيون في عهد الانتداب البريطاني".

وبالإضافة إلى الملاحظات السابقة، فهناك ملاحظات أخرى أود أن أشير إليها وهي:

١. رغم ان الباحث اشار في مقدمة الدراسة انه قسمها الى مقدمة وخمسة اقسام، الا انه لم يلتزم بهذا التقسيم خلال تبويبه لدراسته، ويبدو ذلك بشكل واضح في قائمة المحتويات، وفي متن الدراسة نفسها.
٢. جاء ترتيب المفكرين الذين تناولتهم الدراسة على النحو التالي:

محمد اسعاف النشاشيبي (١٨٨٢-١٩٤٨)، عارف العارف (١٨٩٢-١٩٧٣)، خليل السكاكيني (١٨٧٨-١٩٥٣) واسحق موسى الحسيني (١٩٠٨-١٩٩٥). وليس واضحاً الأساس الذي تم عليه هذا الترتيب إن لم يكن على أساس سنة الولادة، أو سنة الوفاة، أو الحروف الهجائية، أو الأبجدية، ولا على أساس التخصص.

٣. رغم أن الباحث وضع قائمة بالمصادر و المراجع التي اعتمد عليها في توثيق المعلومات عن كل مفكر على حدة الا أن ذلك لا يعفي الباحث من وضع قائمة موحدة وشاملة في نهاية الدراسة، بجميع المصادر والمراجع التي اعتمد عليها.